عبــــد المحســن الكاظــمي

"شــاعر العرب" في قصيــدة "غراء"

حسن معتوق

من نخيل العراق، ومن قلب الغريين، إلى أرض الكنانة، وضفاف النيل، يتعانق الرافدان ويتلاقى الكاظمي ومحمد عبده، ويتحلق حولهما في منتدى الشعر والأدب نخبة من أدباء مصر، ويتالق نجم الكاظمي في سماء قاهرة المعز وينبض الأزهر بروح جديدة، فهذا حفيد الشريف الرضي يبعث في مصر أمجاد الشعر الأصيل

عبد المحسن الكاظمي رجل أهلته عوامل شخصية وظروف بيئية ليكون واحداً من الشعراء الأفذاذ، الذين تربّعوا على أريكة الشعر، فلقب بـ "شاعر العرب"، وتغنت بقصائده الأجيال العربية، وحفظ بعضها شعراء عصره ممن تصدروا ساحة الأدب واعترفوا له بالتميز عنهم في براعة النظم وسرعة البديهة والارتجال. ولم يدّع أحد مجاراته في طول النفس وسرعة النظم، فرفعه المنصفون منهم إلى مراقي النجم، وحظي بصداقة الكبار أمثال الشيخ محمد عبده، والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والشيخ علي يوسف صاحب صحيفة "المؤيد" والأستاذ العقاد ورفائيل بطي والشيخ عبد القادر المغربي، رئيس المجمع اللغوي والأستاذ أسعد داغر في حين تحامل عليه بعض الشعراء والأدباء لما بلغه من مكانة أدبية كادت تزيحهم عن أرائك الشعر، كأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ولكن التاريخ أصدق شاهد، فلم يذكره الرواة بكبوة أو جفوة ونبوة، بل كان مثال الأبي في سماحة نفسه ورهافة طبعه، على ما لاقاه من عنت وجفاء وغربة.

ولد شاعرنا في الكاظمية في أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، واختلف إلى مباءات العلم والأدب، فتتلمذ على عدد من العلماء والشعراء كالسيد إبراهيم الطباطبائي والشيخ جابر الكاظمي، فحمَّس الأزرية واغترف من معين الشعر العربي القديم، وحفظ آلاف الأبيات، ما أهله لأن يكون صدى البوادي في حواضر العراق ومصر، دون أن

نلمح أثر التقليد فيما أبدعه من شعر مطبوع ظل يحمل خصائص مبدعه، ويشهد له بالأصالة.

من ذلك ما حدث به الأستاذ العقاد حينما زار الكاظمي، فلم يخف إعجابه بقصيدته العينية التي يصف فيها رحلته إلى مصر، تلك القصيدة التي أظهر كثير من أدباء مصر وشعرائها إعجابهم بها، منها قوله:

إلى كم تجيل الطرف والدار بلقع … أما شغلت عينيك بالجزع أدمع
أأنت معيري عبرة كلما دنت … يحفزها برح الغرام فتسرع
وهل عريت أرض كسوت أديمها … بماء شؤوني فهي زهراء ممرع
فمن حر أنفاسي وفيض محاجري … تراءى مصيف في ثراها ومربع
جرى ماء دمعي عن سويداء مهجتي … فمن أجل ذا وشي الرياض مجزَّع

ثم راح العقاد يتلو الأبيات متذكراً ومستظهراً:

ولما نقلنا للبواخر رحلنا … وعفنا المطايا وهي حسرى وظلَّع
هجمنا على جيشٍ من الموج ضارب … بزخاره نحو الفضا يترفع
يطالعنا من كل فج كأنه … جبال شرورى أقبلت تتصدّع
ولما تبيَّنت السويس وسار بي … إلى النيل سيّار من البرق أسرع
هرعت إليه ثانياً من حشاشتي … وقلت لصحبي: هذه مصر فاهرعوا

كان الشاعر الكاظمي قبل أن يهبط مصر، قد التقى جمال الدين الأفغاني، وتوثقت عرى الصداقة بينهما حين وفود السيد جمال الدين إلى العراق، كما عانى كلاهما النفي والغربة عن الوطن، وكما اضطر الأفغاني إلى الهجرة من إيران، كذلك اضطر شاعرنا إلى الهجرة من العراق، ليجعل وجهته أرض مصر التي استوطنها وقضى فيها من حياته الشطر الأكبر، وقال فيها معظم شعره، متغنياً بأمجاد العرب والمسلمين، وترددت أشعاره في أرض الكنانة، وتناقلتها المحافل الأدبية، فنظم في المناسبات الدينية والتاريخية، ولم يمدح تزلفاً، وإنما كان الإعجاب هو مثار ما أبدع من أشعار، فنظم في سعد زغلول وأمثاله من شخصيات مصر.

أمضّه الفقر والفاقة وألمّ به كلال البصر، فعاقه أن يغشى المجتمعات والأندية، ثم توفي شاعرنا سنة ١٩٣٥ في مصر غريباً، بعد أن ضمّه وادي النيل حياً وميتاً، وهناك بلغ أوج شهرته، وكان قد تزوج من فتاة مصرية أنجبت له أولاداً لم يعش منهم إلا رباب

التي كثيراً ما ذكرها في شعره، بل وتغنى بها مظهراً شغفه بوحيدته التي نشرت ديوانه بجزئيه في مطلع الأربعينيات.

إذا ذكر الشعر في مصر، فلا بد أن يذكر الكاظمي فهو الشاعر الذي نزح عن وطنه العراق، بعد أن ألهب قلبه الحنين والاشتياق، فنظم عراقياته الرائعة، ثم حلّ في مصر فتأثر بأجوائها وتفاعل مع أحداثها، وتأثر بأدبائها وأثر فيهم، لا سيما الرافعي وحافظ إبراهيم اللذان تأثرا بنهجه ومسلكه الأدبي.

ولكي تعرف الكاظمي فما عليك إلا أن تعرف أصدقاءه، من الأفغاني وعبده، والرافعي والعقاد والأمير عبد القادر، هؤلاء هم صفوة العلم والأدب، وروّاد الثقافة في مصر، أما خصومه، فلن أحدثك عنهم، بل ما عليك إلا أن تراجع أخباره معهم، لتعرف مدى تفوقه عليهم، ولترى مقدار ما فاقت نفسه الشريفة على نفوسهم المتزلفة.

وكما افتقدته مصر، افتقده العالم العربي والإسلامي، فأقيم له ضريح يليق بمقامه في إحدى ضواحي القاهرة، كما يرتبط اسمه اليوم بميدان شهير في وسط بغداد.

قصيدته في الرسول (ص) وأهل بيته (ع)

إن من يتصفح ديوان الكاظمي لا بد أن ينبض وجدانه ويخفق جنانه، فالشاعر مطبوع على أصالة تروع القارئ وتأخذ بمجامع عقله ولبه. فتصبيه الرقة ويذيبه الحنين، ويأسره اللمح التصويري والإثارة العاطفية العابقة بجنائن الحضر وروائع الصحراء.

وقد يعجب القارئ لندرة القصائد التي سجلها ناشر الديوان في الرسول (ص) وأهل بيته (ع)، وهو الشاعر الفحل، المتوقد القريحة، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الوهم، إذا عرفنا أن صديقاً للشاعر الكاظمي، رمى في ماء دجلة، صندوقاً يحوي آثار الشاعر وأشعاره، ظناً منه بأن صاحبها يسلم من السلطات التي كانت تخيفها الكلمة الشجاعة، والموقف الشريف، فقد عرف عن الكاظمي أنه كان رائد فكر وإصلاح.

ولقد عثرنا على قصيدة له في الجزء الثاني من ديوانه، فالتمعت كالدرة اليتيمة، التي غواصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد ـ على حد تعبير النابغة ـ وكأن الشاعر لم يكفه هذا النزوح عن وطنه الأم، فعانى الثكل في ولده، والخصاصة في عيشه، وفقد أوراقه وأشعاره.

هذه القصيدة عنوانها "**يا تربة المصطفى (ص)**".

وهي تمثل خصائص الشعر في أخذه بمذهب الأولين، وأنها تفيض بالحنين الذي نلمحه في شعر الشريف الرضي (الذي ينتسب إليه الشاعر من جهة أمه)، ومهيار الذي يحمل طابع أدب التشيع، وما يمتزج به من التياع ووجد يعبر عما استقر في أعماق ذلك الوجدان من ذكريات أئمة أهل البيت (ع) وجدهم المصطفى (ص).

أحب الشاعر وهو الصادق الولاء أن يمضي سلساً على سجيته في حديثه عن النبي (ص) وأهل بيته (ع)، فاختار من الأوزان وزن المنسرح الذي هو الخط الفاصل بين النثر والشعر، فأخذ من الشعر موسيقاه ووجدانيته، ومن النثر انسيابه وترسله، وهو يذكرنا بأبي

فراس الحمداني في بعض قصائده الوجدانية، فكانت هذه القصيدة العصماء أشبه بالسهل الممتنع، وهي تنبئ عن المستوى الرفيع الذي بلغته شاعرية الكاظمي.

يستهل شاعرنا قصيدته بالسؤال عن أحبائه، وهو لا يخفي إحساسه بما يعاني من شجى في القلب، وقذى في العين، وهو كناية عن شعوره بلوعة الفراق، وهو صادق التعبير، لأنه نازح عن بلده ومفارق لأحبته، وحيث أنه لم يجبه أحد، ينتقل إلى مخاطبة الحمى، وحسب الشاعر لوعة وغربة أن يحاور رسوماً دارسة، والذكر يلقح الشوق، والشوق ينتج الحنين، فكيف يتداوى الداء بالداء.

وكم في لفظة (أحباي) التي حذفت الهمزة منها للتسهيل، من دلالة على الدنو والقرب:

أدعو أحباي والفؤاد شج	**والعين مكحولة بأقذاء**
أيا أحباي كم دعوتكم	**ولم أجد بالحمى أحبائي**
وكم دعوت الحمى فلم يرني	**إلا رسوماً تخفى على الرائي**
إذا تداويت بادكاركم	**أهاج لي طيب ذكركم دائي**

ويبلغ النداء غاية روعته، فالسرى هو المشي ليلاً، وذلك ادعى إلى إثارة النفس وانبعاث مواجدها، ثم هو سير عجل، دليل نشاط وانشغاف، وما دعوة الشاعر هذا المدلج الساري ليمشي على أحشائه، إلا دليل على ولوع الشاعر بتلك الرحلة التي تدنيه من أروع محبوب وأعز مطلوب، ويا لها من كناية تشف عن أبلغ صورة عرف كيف يبتكرها شعراء العرفان والحب المشغوفون أمثال الكميت بن زيد ومهيار والشريف الرضي، ثم اقتبسها شعراء الغري وجبل عامل، وأغلب الظن أن هذا المعنى ابتكره الكميت بن زيد الأسدي في إحدى مقطوعاته، وهو شاعر عاش في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة، وهو أستاذ هذه المدرسة في الشعر، كما في قوله:

وقفت على أطلالها فتكاثرت	**عليّ همومي فهي تشبه عذالي**
ديار اللواتي سرن فيها عشية	**وغادرن قلبي بين حزن وبلبال**
وما ارتحلت عني الركائب وحدها	**ولكن روحي للركائب تالي**
ولو أنصفت داست بأخفافها التي	**تدوس بها الأحجار لحمي وأوصالي**

ويقول الكاظمي:

يا أيها الممتطي سرى عجلاً	**دع المطايا وسر بأحشائي**

بعد هذه التوطئة الرائعة، بدأ شاعرنا مدحته بقوله: (عرّج على يثرب)، وهي مدينة الرسول (ص) ومهاجره التي تضمنت جسده الشريف، ثم هي طيبة التي طابت بمن فيها، وبها بقيع الغرقد الذي يضم أربعة من أعلام الهدى، وخامسة أهل الكساء فاطمة الزهراء

(ع)، ولعل البيت السابع في القصيدة هو ذروة ما فيها روعة كناية وبلاغة استعارة، يمثل الكون مشيراً براحته إلى صاحب القبر الشريف، ولا عجب، أليس هو خير ولد آدم، كما صرحت رواياتنا، ثم هو أول المئة كما أكد "هارت" في كتابه "المئة الأوائل" من عظماء الدنيا، وهو أبرز "الأبطال" كما صرح "كارلايل"؛ كل نفس تود لو يفتدى بها، وعليه من السما صلوات، وهو القمر المنير، بل البدر يستضيء بنوره، ثم يذهب الشاعر في تصوره، فإذا بهذه الأرض المتضمنة جسد النبي (ص) ليست من نسيج هذا العالم الأرضي، بل هي قطعة من السماء تدور حولها الأفلاك، بل السماء تود لو أن بها بعض عطر من طيب ثراه.

يقول الكاظمي:

عــرّج علــى يــثرب وشــقّ علــى	**بطحائــــها قلـــب كـــل بطحـــــاء**
واستوقف العيس في ثرى وقف الكـــو	**ن مشـــــيراً لــــــه بإيمــــــاء**
نفســي فــدى تربـــة أقـــام بـــها	**خـــير بنــــي آدم وحــــــواء**
صلــى عليــه الإلـــه مـــن قمـــر	**ينـــير للحشـــر كـــل ظلمـــاء**
بضوئــــه البـــدر يســـتضيء ولا	**مـــن مطلـــع غـــيره لأضـــواء**
أنــــى تأملتـــه وجـــدت بـــه	**كــــل ســــنا للــــهدى ولألاءِ**
جــز الســما وابلغــن ثــراه تجــد	**كــم مــن ثريــا بـــه وجـــوزاء**
تفـــوق تلـــك التـــي بزهوتــــها	**تفــوق فــي الدهــر كــل زهــراء**
أرض تمنــــى الســــماء أن بــــها	**من بعض ذي الأرض بعــض سـيماء**

ثم يمضي الشاعر في مخاطبة "تربة المصطفى (ص)" فيرى فيها شموخ الشرف، وهي علياء كل علياء، أوليست تلك مهوى أفئدة الناس تهوي إليها من كل أصقاع الدنيا، فتنال منها نشقة عطر أو نفح طيب.

ثم يتبدل حال الشاعر تبدلاً عجيباً، فبينا هو في مطلع قصيدته يدعو أحباءه والفؤاد شج، والعين مكحولة بأقذاء، إذا به وقد لامس قبر النبي (ص) براحتيه يؤوب والبِشْر يملأ قلبه، وقد قرّت عينه بعد أن اكتحلت بسنا طلعة النبي الغراء وأهل بيته (ع)، واصفاً كل فرد منهم بأنه وضاح الجبين أغر، كأنه السيف الصقيل الماضي الحد، تضيء وجوههم في السلم وتفري شفارهم في الحرب، وهم الملاذ في النكبات والعماد في اللأواء، وهم شفاء القلوب إذا عز دواء على الأطباء، العز في الانقطاع إليهم، وحسبه فخراً أن يقبلوه من الأرقاء. استمع إليه يقول:

يا تربـــة المصطفـــى اشـــمخي شـــرفاً	**فـــأنت عليـــاء كـــل عليـــــاء**
وكل مــــن كـــان فــــي الوجـــود ومـــا	**يكــون مــن ذاهــب ومــن جـــائي**

تدنـــو فتحنـــو عليـــك كـــــل حشـــــاً		مـــن كـــل دانـــي الديـــار أو نـــــــائي
فــــأنت للقلـــــب ســــلوة وكــــــرى		لجفـــن مـــن لـــــم يفـــز بإغفـــــاء
أصبـــــو إلــــــى أحمـــــد وعترتـــــه		كـــــل لحبيـــــب الجبيـــــن وضـــــاء
كـــل إمــــــام يغنـــــي بكـــــل بــــلا		عـــن كـــل عضـــب الغـــرار مضّـــــاء
أعلو بــــهم يـــوم خفـــض كـــل علـــىً		وفـــي يـــدي خفـــض كـــــل عليـــــاء
هــــم مــــلاذي فـــــي كــــل نازلــــة		وهـــم عمــــــادي فـــــي كـــــل لأواء
وهــــم شـــــفا هــــذه القلــــوب إذا		عـــز شــــفاء علــــى الأطبــــــــاء
فــــهم موالــــي والرقيــــق أنـــــــا		إذا قبلونــــــــي مــــــن الأرقــــــــاء

ولا غرو، أليس كل واحد منهم:

...أغـــر يشـــق كـــل دجـــــــى		بطلعـــــــة للزمــــــان غـــــــرّاء

ولا بأس على الشاعر إذا صرف "غراء" وهي مما لا ينصرف، فتلك العملة النـــادرة التي لا يعرف صرفها ولا صِرفها إلا من عرف الحق.

قد لا يساورك العجب إذا رأيته يفديهم بنفسه، ولكن الشاعر لم يكتف بذلـك بـل راح يفتدي بنفسه من يحبهم، ومن هنا فإن أشعتهم تنعكس على من يدينون لهم بالولاء، فيكسبهم ذلك الإشعاع كرامة ويعلق بذيولهم ذلك الشرف الباذخ.

وهكذا يخلص الشاعر من مدح النبي (ص) إلى أهل بيته الكـــرام الـبررة (ع)، ولا ينسى أن يذيل قصيدته بالثناء على أهل المودة والولاء، من وقف نفسه على الإخلاص لهم قلباً وعملاً، ولم لا وممدوحو الشاعر هم نعم الذخر والعمدة، ومنهم يستمد ســــعادته فـي النشأتين، وهكذا ينهي الشاعر قصيدته بقوله:

أفـــــدي بحوبــــاي مـــــن يحبـــــهم		بـــــل أفتديـــــه بكـــــل حوبـــــاء
مـــا لــــي ســـواهم ذخـــراً لآخرتـــــي		وليـــــس إلاّ هـــــم لدنيـــــائي

هذا هو الشاعر عبد المحسن الكاظمي، "شاعر العرب"، وشاعر الولاء، يتغنى بتربــة المصطفى (ص) ويناجي أهل بيته الأطهار (ع)، فيشيد فيهم بأروع الأشعار مـــا ينسـيك صوادح الأطيار.

✵✵✵✵✵✵✵✵✵
✵✵✵✵✵✵
✵✵✵✵